هندسة المساحات العامة والقوة
ـ دوّار المنارة نموذجًا ـ

عدنيّة شبلي*

في كثير من الأحيان يَنْظر أفرادُ المجتمع إلى محيطهم المعماري كما لو أنّه أمرٌ عاديّ أو مفرَغٌ منه. وهنا بالتحديد يَكْمن أساسُ القوة وسرُّها في التصميم المساحي: ألاّ يتساءَلَ الفردُ عن كلِّ ما يحيط به

يحاول فُوكو في إحدى مقالاته[1] فحصَ غورِ الدوْر الذي تَلْعبه الهندسةُ المعماريةُ في تصميم المجتمع وتحديدِ علاقاتِ القوة بين فئاته المختلفة منذ نهاية القرن الثامن عشر، حيث طَرَأَتْ تغييراتٌ حادّةٌ في مفهوم التصميم المساحي في المجتمع

---

* ـ كاتبة شابّة من فلسطين حازت روايتُها الأولى **مساس** (دار الآداب ٢٠٠٢) جائزةَ الرواية في مسابقة الكاتب الشابّ للعام ٢٠٠١ التي تنظِّمها مؤسسة عبد المحسن القطّان، وفازت بجائزة مماثلة وبمسابقة مماثلة عام ٢٠٠٣ عن روايتها **كلُّنا بعيد بذات المقدار عن الحب** (دار الآداب، ٢٠٠٤)

١ ـ Foucault, M., "Eye of Power," in **Power/ Knowledge: Selected Interviews and Other Writings,** Gordon, C. (Ed.) (New York: Pantheon Books), 1980, pp. 146-165.

الأوروبي جاءت على أعقاب التغييرات السياسية والصناعية والاقتصادية والدينية.

فحتى نهاية القرن الثامن عشر، انصبّ جلُّ اهتمام المهندسين في أوروبا على إنتاج رموزٍ ومعالمَ معماريةٍ هدفُها تمثيلُ مجموعة القوةِ أو الفئةِ الحاكمةِ بشكلٍ مباشر، كالقصور والكنائس أو تماثيلِ الملوك والقدّيسين المزروعةِ في الساحات العامة. لكنْ مع حلول الثورة الصناعية، ظهرتْ محاولةُ استخدام المساحات العامة بهدف السيطرة على الأفراد وضبطهم. غير أنّ هذا التحوّل في فهم الهندسة المعمارية والتصميم المساحي ما كان ليجري لولا التحوّلاتُ التي طرتْ آنذاك على مفهوم القوة وسُبُل تطبيقها. ففي أعقاب الثورة الصناعية وبدايةِ العصر الحديث، تحوّلت «القوةُ» من كونها وسيلةً يستخدمها فردٌ أو مجموعةٌ ما لتمثيلهما إلى عاملٍ مسؤولٍ عن إنتاجِ وإعادةِ إنتاجِ الأفرادِ في المجتمع بأسره، وذلك عبر سلسلةٍ متشابكةٍ من التصرّفات والعادات والتحركات اليومية والمساحية.[١] ووفق ذلك، قامت «القوةُ» بتبنّي حقل الهندسة المعمارية والتخطيط المساحي كتقنيةٍ حديثةٍ للسيطرة على لمتابعة تحرّكاتهم المساحية.[٢]

وفي الوقت الذي راحت تجري فيه مثلُ هذه التحوّلات في تصميم المساحات المدنية في أوروبا ما بعد الثورةِ الصناعية، بدأتْ تطرأ بعضُ التغييرات أيضًا على طريقٍ ترابيةٍ فرعيةٍ يَسْتخدمها في العادة الرعاةُ وقطعانُ ماشيتهم، وتَرْبط بين قريتين كانتا صغيرتيْن آنذاك وتَقَعان في منطقة المركز في فلسطين، إلا أنّها ستتحوّل بعد قرنيْن من الزمن إلى واحدةٍ من أهمّ المساحات العامة في فلسطين: إنّها دوّار المنارة.

I ـ المنارة ـ خلفية تاريخية

١. ١. المنارة في بداية القرن التاسع عشر. في مقالة لصالح عبد الجواد،[٣] يأتي أنّ الحيِّز الذي تَشْغله المنارةُ حاليًا كان، حتى نهاية القرن الثامن عشر، طريقًا ترابيةً فرعيةً يمتدّ طولُها حوالي كيلومتر واحد ونصف وتَصِلُ بين قريتيْ رام الله والبيرة. ومع بداية القرن العشرين ازدادت أهميةُ هذه الطريق تدريجيًا نتيجةً لعوامل عدّة، أهمُّها:

- بناءُ مدرسة الفريندز للصبيان في العام ١٩٠١، وبمبادرة من بعثة الكويكرز في فلسطين، فوق قطعة أرض تابعةٍ لقرية البيرة، تَبْعد حوالي ٣٠٠ متر عن موقع دوّار المنارة الحالي. ولقد اشتُهرتْ هذه المدرسة بسرعة كبيرة، حتى غدَتْ أفضلَ المدارس في فلسطين في تلك الفترة.
- قرارُ متصرّف سنجق القدس في العام ١٩٠٢ تحويلَ قرية رام الله إلى مديرية يقع ضمن حدود إدارتها حوالي ثلاثين قريةً مجاورة، فتحوّلتْ رام الله بذلك إلى ثانية أهمّ البلدات في منطقة المركز بعد مدينة القدس. ولقد تمّ تعيينُ ضابطٍ عثماني لإدارة شؤونها، يساعده في ذلك العديدُ من الموظّفين والقضاة ورجال الشرطة. وأسهمتْ هذه التعييناتُ في خلق إحساس بـ «الأمن والاستقرار» لدى السكّان، الأمرُ الذي أدّى بدوره إلى ازدياد حركتَي البناء والتجارة فيها، خاصةً إثر اضطرار بعض الموظّفين إلى القدوم والسكن فيها، وكذلك نتيجةً للجوءِ كثيرٍ من سكّان القرى المجاورة إليها لإتمام شؤونهم في دوائرها الحكومية.
- الانتهاءُ في العام ١٩٠٥ من توسيع وتعبيدِ طريقٍ للمَرْكبات وَصَلَ بين مدينتيْ نابلس والقدس، ومرّ عبر بلدة رام الله، وعبر منطقة المنارة بالتحديد. وفي تلك الفترة أيضًا انتهى العملُ على تشييد مبنى السرايا، الذي ضَمَّ مكاتبَ سلطات الحكم العثماني على بعد حوالي ٢٥٠ مترًا من دوّار المنارة الحالي.
- تحوُّلُ بلدة رام الله في العام ١٩٠٨ إلى مدينة، وتعيينُ مجلسٍ بلديّ لها يتكوّن أعضاؤه من ممثّلين عن العائلات الرئيسية التي كانت تعيش في رام الله آنذاك.
- قرارُ سلطات الاحتلال البريطاني، التي سيطرتْ على فلسطين بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، تحويلَ رام الله إلى قائم ـ مقامية عامَ ١٩١٨. وهكذا بدأ شقُّ الطرق من المدينة وإليها لتسهيل حركةِ المَرْكبات العسكرية، وحركةِ السيارات التي ازداد اقتناؤها مع الوقت.
- توصيلُ مدينةِ رام الله وجارتها قريةِ البيرة في العام ١٩٣٥ بشبكة الكهرباء، فأُنيرتْ شوارعُهما من لوحةِ مفاتيح وُضعتْ على عمودٍ شُيِّد فوق الطريق التي وَصَلَتْ بينهما، وحُدِّدتْ بأنها تقع ضمن حدودِ مدينة رام الله وتَخْضع لسيطرة مجلسها البلدي.
- قرارُ سلطات الاحتلال البريطاني تشييدَ مبنى المقاطعة عقبَ نشوب ثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩). والمقاطعة هي عبارةٌ عن مبنًى منفصل يضمّ جميعَ المكاتب الإدارية لسلطة الانتداب، فضلاً عن سجن. ولقد تمّ تشييدُها على بعد حوالي ٨٠٠ متر من دوّار المنارة الحالي.[٤] وفي الوقت نفسه، قامت السلطاتُ البريطانية بتوسيع الطرق المؤدّية إليه بهدف تسهيل حركة مَرْكباتها العسكرية إلى جميع أنحاء المدينة، خاصةً في حال نشوب ثورة مماثلة في رام الله.

---

١ ـ Sheridan, A., **Michel Foucault: The Well to Truth** (London: Tavistock Publications), 1980.

٢ ـ Tehranian, K. K., **Modernity, Space, and Power: The American City in Discourse and Practice** (Cresskill: Hampton Press, 1995).

٣ ـ صالح عبد الجواد، «رام الله والبيرة: ميدان المنارة يَنْهض من ركام التاريخ،» صحيفة **الأيام**، ٢٠ /١١/١٩٩٩

٤ ـ قامت قواتُ الاحتلال الإسرائيلي بهدم أغلبِ أجزاء هذا المبنى (وداخله الرئيس الفلسطيني السابق ياسر عرفات) في خريف ٢٠٠٢

كيف تحوّلتْ طريق ترابيةٌ فرعيةٌ يستخدمها الرعاةُ وقطعانُ ماشيتهم إلى واحدة من أهم المساحات العامة في فلسطين؟

• تأسيسُ أول محطة راديو في فلسطين عامَ ١٩٣٦، وذلك على مسافة ٢٠٠ متر تقريبًا من المقاطعة وكيلومترٍ واحدٍ من المنارة. وتُعتبر هذه الخطوةُ من أهمّ التطورات التكنولوجية التي طرأتْ على المدينة بعد إيصالها بشبكة الكهرباء.

• تحسُّنُ الوضع الاقتصادي لأهالي رام الله والبيرة، إثْرَ هجرة العديد من أبنائهما إلى القارتيْن الأميركيتيْن بهدف العمل وإرسال مدّخراتهم إلى أهلهم لدعمهم، وللاستثمار أيضًا فبُني العديدُ من أماكن السكن والمحالّ التجارية، التي شُقّتِ الطرقُ إليها لإيصالها بالأجزاء الأخرى من البلدتيْن وبالمراكز الحكومية والتجارية الأخرى ولم تتوقفْ حركةُ البناء هذه إلاّ مع نشوب الحرب عامَ ١٩٤٨.(١)

٢.١. النكبة الفلسطينية وما تلاها. كانت محصلّةُ احتلال فلسطين في العام ١٩٤٨ تهجيرَ وتشريدَ ٨٠ بالمائة من الشعب الفلسطيني من مدنهم وقراهم الأصلية التي هُدمتْ غالبيتُها، واحتلّت المجموعاتُ المستعمِرةُ ما تبقّى منها

وقد كانت إحدى الوجهات التي توجّهَ إليها بعضُ المهجّرين، خاصةً من قضاء القدس ويافا واللدّ والرملة، هي رام الله والبيرة، التي قام سكّانُهما بإيواء العديد منهم في المباني العامة وفي المدارس، إلى أن قامت الأممُ المتحدةُ ببناء مخيّماتٍ خاصةٍ بهم في المناطق المجاورة

غير أنّ تأثير النكبة على منطقة رام الله لم يقتصرْ على ازدياد عدد السكان فيها، وإنّما تعدّاه إلى النشاط الاجتماعي والاقتصادي الذي راح يتركّز في منطقة المنارة، بل وامتدّ إلى النشاط السياسي أيضًا فتلك المجموعاتُ اللاجئة، بواقعها الجديد وهويتها الجديدة، بادرتْ إلى خلقِ وعيٍ وتياراتٍ وحركاتٍ سياسيةٍ مختلفةٍ عن التي سبقتها. فعلى سبيل المثال، خَرَجَتْ أولُ مظاهرة سياسية ضخمة في تموز (يوليو) ١٩٤٨ من منطقة المنارة، وفيها عَبَّرَ المتظاهرون عن إحساسهم بالخيبة ممّا آلت إليه الأمورُ في فلسطين بعد هزيمة جيشَي الجهاد والإنقاذ واحتلال القوات الصهيونية للجزء الأكبر منها. ومنذ ذلك الحين راحت وتيرةُ هذه المظاهرات والاحتجاجات تزداد وتتّسع لتشْمَلَ أشكالاً أخرى من النشاط السياسي، منها المفتوحُ كالتظاهرات الثقافية ذاتِ الأبعاد والمضامين السياسية، ومنها المغلقُ كالاجتماعات السرية. وعادت حركةُ البناء تَنْشط من جديد، خاصةً حول المنارة، حيث تمركزتْ غالبيةُ مكاتب الخدمات، كالمصارف والعيادات والمقاهي والمتاجر ودُور السينما... هكذا، ومع وصول العقد الخامس من القرن العشرين إلى نهايته، غدت المنارةُ أكثرَ المساحات العامة في المنطقة إفعامًا بالحياة: فقد صارت النقطةَ التي يتّجه إليها الجميعُ ومن كل صوب - بما في ذلك المخيّمات أيضًا - لشتّى الأسباب، ومنها التجاريةُ والإداريةُ والاجتماعيةُ والسياسية، أو حتى لمجرّد المشي ترويحًا عن النفس.

٣. ١. تحويل المنارة إلى نُصب. في العام ١٩٥١، خلال فترة سيطرة الأردن على الضفة الغربية، تمّ الانتهاءُ من العمل على نُصُبٍ استُبْدِلَ عمودَ المنارة القديم، الذي لم تَعُدْ هنالك حاجةٌ إليه بعد تحوُّلِ نظامِ تشغيل أضواء الشوارع منذ منتصف الأربعينيات إلى نظامٍ مركزي ولقد أوْكلتْ بلديةُ رام الله تصميمَ هذا النصب في العامِ ١٩٤٦ إلى فنانٍ راملاويٍّ الأصل، فنَحَتَ خمسةَ رؤوس أُسُود وَضَعَها في قاعدة عمودٍ من الحجر، ومِنْ حولها شُيِّدتْ نافوراتٌ وزُرِع حوضُ أزهار، ثم أُحيطَ بهذه كلِّها درابزينٌ معدنيٌّ دائري وتَرْمز رؤوسُ الأسود إلى خمس عائلات راملاوية تَعتبر نفسَها الأصليةَ في المدينة، وهي: إبراهيم، وجريس، وشقير، وحسّان، وحدّاد.(٢)

في العام ١٩٦٧ احتلّت القواتُ الإسرائيلية ما تبقّى من الأراضي الفلسطينية. ثم قامت في السبعينيات بحلّ المجلس البلدي لمدينة رام الله، وعَيّنتْ مكانَه حاكمًا عسكريًا لـ «إدارة» شؤون لواء رام الله وفي فترةِ حكم الضابط موشيه بيطون (١٩٨٢ - ١٩٨٦) صَدَرَ قرارٌ بهدم المنارة في سنة ١٩٨٢ بحجّة وضع إشاراتٍ ضوئيةٍ مكانَها من أجل تنظيم حركة السير في المنطقة. غير أنّ هذه الإشارات لم توضَعْ، بدورها، لـ «أسبابٍ أمنية،» ووُضعتْ بدلاً منها جُزرٌ صغيرةٌ في بداية كلٍّ من الشوارع الستة التي تفرَّعتْ من المنارة. أمّا نُصب المنارة فقد فُكِّكَ وأُودِعَ في مخازن البلدية، ولم يرَ النورَ إلا سنةَ ١٩٩٧ عقب مباشرة الحكم الذاتي في المدينة.(٣)

---

١ - عبد الجواد، مصدر مذكور

٢ - Shaheen, N., **A Pictorial History of Ramallah** (Beirut: Arab Institute for Research and Publishing), 1982.

٣ - عبد الجواد، مصدر مذكور

غير أنّ المنارة، بالرغم من هدمها، ظلّت تتمتّع بالمكانة نفسِها لدى سكّان المنطقة، الذين بقوا يُطْلقون عليها اسمَ المنارة فاستمرّت المظاهراتُ ضدّ الاحتلال الإسرائيلي انطلاقًا منها، كما كان الحالُ في السابق، وكذلك جَرَتْ غالبيةُ المواجهات من حولها. مثلاً، تركّزَ أحدُ أهمّ الاحتجاجات الشعبية في مطلع الانتفاضة الأولى (١٩٨٧ ـ ١٩٩٣)، وأعني العصيانَ المدنيَّ، في منطقة المنارة (حيث انتشرتْ غالبيةُ المحالّ والمراكز التجارية). كما نشبتْ لاحقًا مواجهاتٌ يوميةٌ بين طلاّب المدارس والجامعات وبين الجنود الإسرائيليين الذين استولوْا على المباني الحكومية السابقة التي يقع أغلبُها ـ إنْ لم يكن جميعُها ـ حول المنارة. ثم إنّه كان لا بدّ للطلاّب الفلسطينيين من العبور في تلك المنطقة، التي بقيتْ ـ رغم إزالة النُّصب الفعلي للمنارة ـ نقطةَ التقاءِ أكثرِ من خمسة شوارع رئيسية، تقود من / وإلى أماكن دراستهم ومن / وإلى بيوتهم في المدينة والمخيّمات والمدن والقرى المجاورة. وبقيت المنارة، حتى بعد هدمها، تحتلّ حيّزًا هامّاً في الوعي المساحي لأهل المنطقة، محدِّدةً لتحرّكاتهم وتصرّفاتهم المساحية، ومتحوّلةً بذلك إلى ضربٍ من ضروب الإحساس الوهميّ بالعضو المبتور (phantom-limb).

٤. ١. إعادة تشييد نُصب المنارة. في مطلع العام ١٩٩٧ انسحبتْ قواتُ الاحتلال الإسرائيلي من مدينتيْ رام الله والبيرة، إثرَ توقيع اتفاقيات أوسلو سنة ١٩٩٣، فتحوّلتْ إدارةُ هاتين المدينتين إلى السلطة الفلسطينية، التي قامت بإعادة تشكيل مجلسيْهما البلديّيْن اللذيْن كانت سلطاتُ الاحتلال الإسرائيلي قد حلّتهما قبل أكثر من عشرين عامًا. أما في ما يتعلق بالمنارة، فتشير عدالة الأتيري، مديرةُ قسم الهندسة المعمارية في بلدية رام الله، في مقابلة أُجْرِيتْ معها في هذا الخصوص، إلى أنّه تمّ إخراجُ أجزاء النُّصب القديمة من مخازن البلدية، لكنْ ليس إلى موضعها الأصلي، وإنما فوق دوّار يَبْعد حوالي ٢٠٠ متر عنه، ويَرْبط بين خمسة شوارع داخلية لمدينة رام الله، وقد أُطْلق عليه اسمُ «دوّار الساعة» أو «ميدان المغتربين.» النتيجة، إذًا، كانت نسخةً طبقَ الأصل لدوّار المنارة السابق عمودٌ تُحيط بقاعدته خمسةُ رؤوس أُسود، حولَها نوافيرُ وحوضُ أزهار لكنْ بدلَ لوحةِ المفاتيح الكهربائية في أعلى العمود، وُضِعتْ ساعةٌ إلكترونية.

في المقابل، لم تَعْملْ بلديةُ رام الله بهذه السرعة وبهذا الوضوح في موقع المنارة الأصلي في البداية، أُزيلت الجُزُرُ التي أقامتها السلطاتُ الإسرائيليةُ بدلَ النصب، ومكانها بُنِيَ دوّارٌ من أجل تسهيل حركة السير التي باتت غيرَ محتملةٍ عقبَ تركيزِ السلطة الفلسطينية غالبيةَ مكاتبها ووزاراتها في محافظة رام الله وقد أدّى ذلك التركيزُ أيضًا إلى إنعاش حركة التجارة والبناء في رام الله من جديد بعد زوال الاحتلال الإسرائيلي، وإلى اجتذاب العديد من سكّان الضفة الغربية وغزّة والخطّ الأخضر لأسباب كثيرة، منها: قضاءُ المهامّ الإدارية، أو عقدُ الصفقات التجارية، أو السكنُ، أو العملُ في أحد مكاتب سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني أو في المؤسسات غيرِ الحكومية التي ازداد عددُها، أو لإتمام الدراسات العليا في الجامعات القريبة مثل بير زيت وأبو ديس والقدس المفتوحة، وأحيانًا لمجرد الترويح عن النفس في المقاهي والمراكز الثقافية المنتشرة في رام الله يُذْكر أنّ بضعة آلاف من فلسطينيي الشتات عادوا إلى الضفة الغربية بعد أوسلو، فقطن كثيرٌ منهم في مدينة رام الله حيث راحت غالبيتُهم تَعْمل في مكاتب السلطة أو المؤسسات الأخرى.

كلُّ هذه التغييرات التي حلّت بمدينة رام الله والمناطق المجاورة أدّت، إذاً، إلى تلك الحالة المدنية ـ المساحية الجديدة التي كان أحدَ أشكالها الأزماتُ الحادةُ في حركة السير في منطقة المنارة وفي الشوارع التي أدّت منها وإليها، والتي لم تكن مهيّأةً بدورها لاستيعاب مثل تلك الحركة المدنية وتعزو الأتيري إلى هذه المعضلة ما جرى من عملياتِ هدمٍ وبناءٍ متكررةٍ فوق حيّز المنارة لفترة تزيد عن ثلاث سنوات، حتى توصّلتْ بلديةُ رام الله إلى قرارها حول الشكل النهائي للدوار، والذي حَمَلَ تصميمًا مستلهَمًا من تصميم المنارة القديم ولقد تمّ اتخاذُ هذا القرار النهائي في العام ١٩٩٩، إثر تولّي المهندس أيّوب رباح رئاسةَ البلدية بعد وفاة رئيسها السابق عيسى زيادة. فأُوكلتْ مهمةُ التصميم إلى مهندس معماري إنجليزي يُدعى ليستر، سَبَقَ أن صَمّم نُصُبًا تذكاريةً في عواصم عربيةٍ مختلفة كعمّان وبيروت

يتكوّن التصميمُ الجديد من عمود حجري يتوسّط النصبَ، يتّصل بأعلاه مصباحٌ موجّهٌ إلى السماء، يُفترض أن تصلَ قوةُ إنارته إلى عشرة كيلومترات، ووُضعتْ في قاعدته نوافيرُ تمثّل ـ كما يُفترض أيضًا ـ ثمانيَ عائلاتٍ من رام اللّه تَعْتبر نفسَها هي الأصليةَ في المدينة (ذلك أنّه تمّت إضافةُ ثلاثِ عائلاتٍ أخرى جاءت إلى المنطقة في القرن التاسع عشر، وهي العجلوني، وحشمه، والأعرج).[1] أما حول العمود والنوافير، فقد وُضعتْ ـ على قواعد حجرية عالية ـ أربعةُ أسودٍ جالسةً ونائمةً وواقفةً وبرفقة أشبالها، يُفْترض أن تَرْمز إلى الإحساس بالفخر والقوة. وأخيرًا أُضيفَ مجسّمٌ معدنيٌّ يصل بين العمود والقواعد التي ارتكزتْ عليها الأُسودُ. وتمّ الانتهاءُ من العمل على تشييد هذا النصب في تموز (يوليو) ٢٠٠٠، وهو ما زال قائمًا حتى الآن وسط ذلك الحيّز.

تلخّص هذه المسيرةُ التاريخية، إذنْ، تحوُّلَ طريقٍ ترابيةٍ هامشيةٍ كانت تَقْتصر على استخدام الموشي إلى إحدى أهمّ المساحات العامة في فلسطين خلال قرن من الزمن إلاّ أنّ ماهيةَ هذا التحوّل وأسبابَه تعود إلى عوامل هامة تتعدّى الخياراتِ المساحيةَ المجرّدة و/أو العنصر الجمالي.

١ ـ Shaheen, opcit.

مجموعة القوة تلجأ إلى التمثيلات الرمزية من أجل تبرير شرعيّتها، وكي لا يعترض أحدٌ خارجها على شكل «العدل» المتمثّل في صورة حُكْمها.

II ـ القوة وأشكال انعكاسها في دوّار المنارة

١ . ٢. المنارة في مراحلها الأولى. لا يُمْكن القولُ إنّ قرارَ تشييد المنارة سنة ١٩٣٥ فوق قطعة الأرض تلك هو قرارٌ عشوائي، بل تقف خلفَه دوافعُ عديدة. منها أنّ اختيارَ منطقةٍ تقع على الحدّ تمامًا بين رام الله والبيرة من أجل إنارتهما معًا يحوِّل الأبصارَ عنهما وعن مجلسيْهما البلديّيْن، ويوجِّهها إلى جهةٍ ثالثةٍ تعلن ـ عبر اختيارها لتلك المنطقة الحدودية بالذات ـ أنّها هي القوةُ المسيطرةُ وصاحبةُ القرار في كلّ ما يتعلّق بالمساحات العامة في البلدتيْن، وأنّها هي المسؤولةُ بالدرجة الأولى عن توفير خدمة الإنارة الجديدة فيهما. وغنيٌّ عن البيان أنّ الوظيفة الفعلية للمنارة، وهي إنارةُ الشوارع والمساحات العامة في رام الله والبيرة، تتضمّن شيئًا من الاحتفالية التي تَعْكس هالةَ «القوة» ـ أيْ سلطاتِ الاستعمارِ البريطاني ـ وقدراتِها على أرض الواقع.(١)

أما على المستوى الفعْلي، فيأتي اختيارُ تلك الرقعة لتصبح المنارة نتيجةً لِما أخَذَ يتركّز حولَها من مكاتب إدارية ومؤسساتٍ تعليمية ومرافقَ خدماتٍ ومحلاّتٍ تجاريةٍ خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، إضافةً إلى ما تمّ شقُّه من طرق رئيسية تمرّ في تلك المنطقة، جاعلةً المنارةَ مركزَ الدائرة الذي تقع في نصف قُطْرها ـ الممتدِّ على مسافة الكيلومتر تقريبًا (مرةً فوق رام الله ومرةً فوق البيرة) ـ جميعُ المؤسسات الهامّة. لكنّه طرأ في الوقت ذاتِه تهميشٌ لمركزيْ رام الله والبيرة السابق. ومن ثم يُمْكن القولُ بأنّ المنارة هي «المركزُ» الذي استحدثتْه السلطاتُ البريطانيةُ لكي يتبنّى سُلّمَ أولويّاتِ ومصالح هذه القوة المسيطرة، متوِّجًا نفسَه «مركزَ المراكز.» وعن رغبة القوة هذه في خلق «مَرْكزٍ» خاصٍّ بها، يشير ميشيل فوكو إلى أنّها رغبةٌ نابعةٌ بالأساس من منطق پانوپتيكيّ (panoptical logic) يرى في المساحة قوةً حيويةً (biopower) تساهم بشكلٍ رئيسي في عملية السيطرة على الأفراد وضبطِهم في مجتمعاتٍ ما بعد عصر النهضة بالتحديد.(٢)

ويُمْكن المرءَ أن يميِّز بعضًا من الأبعاد الهندسية الپانوپتيكية في تصميم المنارة. فموقعُها الجغرافي، وسط مساحةٍ توجَدُ فيها أهمُّ مؤسّسات السلطة في المنطقة، لا يختلف كثيرًا عن البرج الذي يتوسَّط مبنى الپانوپتيكون. فمن المنارة يستطيع المرءُ أن يطَّلعَ بسهولة على حركة العابرين فيها، وأن يوفِّرَ لنفسه المعلوماتِ عنهم، بل وأن يصنِّفَهم أيضًا («مَن يأتي؟ ومِنْ أين وإلى أين يتّجه؟») وهذا ما يفسِّر الوجودَ المستمرَّ حولها لقوات

---

١ ـ في ليبيا مثلاً، خلال أوائل القرن العشرين عندما كانت مستعمَرةً من قِبل إيطاليا، جرى العديدُ من الاحتفالات المساحية التي بادرتْ إليها سلطاتُ الاستعمار في طرابلس من أجل عرض ما تَمْلكه من قدرات. راجع.
Henneberg, K.V., "Tripoli," in **Streets: Critical Perspectives on Public Space**, Celik, Z., Favro, D., & Ingersoll, R., (Eds) (California: University of California Press), 1994, pp. 135-150.

٢ ـ المنطق البانوبتيكي مفهومٌ استحدثه فوكو من مبنى الپانوپتيكون (panopticon) الذي وَضَعَ أُسسَه المهندسُ المعماريُّ الإنجليزي بينثام في القرن الثامن عشر، من أجل ضبط الفرد وإجباره على الانصياع للقوانين أثناء وجوده في مساحات معينة كالسجن أو المدرسة أو المصنع. ويتكوّن الپانوپتيكون من مبنًى دائريّ، يتوسَّطُ ساحتَه الداخليةَ برجُ مراقبة، فيه فتحاتٌ تُطِلُّ على الجزء الداخلي من المبنى، المقسَّم بدوْره إلى غرفٍ عديدة، لكلّ واحدةٍ منها شبّاكان كبيران، أحدُهما يُطلّ على البرج والآخرُ على الخارج. ويَفْسح هذان الشبّاكان المجالَ لكي يَنْفذَ الضوءُ إلى كلّ غرفة، فيمكِّنَ الحارسَ من مراقبةِ كلّ سجين، من غير أن يتمكّنَ هذا الأخيرُ من رؤيته.
والحال أنّ الپانوپتيكون يوفِّر فرصةً مثاليّةً للمراقبة. ذلك أنّ مجرّدَ احتمال أن تكون نظرةُ الحارس موجَّهةً إلى السجن يَجْعل هذا الأخيرَ يراقب نفسَه في كلّ لحظة؛ وهو ما يؤدّي به في نهاية المطاف إلى تقمُّصِ نظرةِ الحارس في البرج، ليتحوَّل إلى حارسِ نفسِه. وذلك الموقف يُعتبر، في الواقع، أساسَ مبدإ الحرية في العصر الحديث: أن تَفْعل ما تشاء، لكنْ أن تبقى في الوقت نفسه مسؤولاً عن كلّ ما تفعله. وبالتالي، يَعْتبر فوكو الپانوپتيكون اختراعًا في نظام القوة، تمامًا كما هو الحال مع محرِّك البخار الذي يُعتبر اختراعًا في نظام التصنيع. راجع المصادر التالية
Foucault, M., "Space, Knowledge and Power," in **Rethinking Architecture: A Reader in Cultural Theory**, Leach, N., (Ed) (London: Routledg 1997), pp. 367-380; Bentham, J., **Panopticon** (London: Postscript, 1791); Foucault, M., **Discipline and Punish** (New York: Pantheon Books, 1977).

الأمن ورجال الشرطة (العثمانية أولاً، فالبريطانية، والأردنية، والإسرائيلية، والفلسطينية، لاحقًا)

وفي حين تَصِفُ السلطاتُ مهمةَ الشرطة في المساحات العامة بأنّها الحفاظُ على أمن أفراد المجتمع وصالحهم، يرى فوكو أنّ الهدفَ الحقيقي هو تسهيلُ عملية المراقبة والسيطرة على الفرد في الحيّز العامّ، والتأكُّدُ من عدم قيامه بشيءٍ من شأنه أن يهدّد هذه السلطةَ وقوتها، بما في ذلك منشآتُها وممتلكاتُها. كما أنّ حضور قوات الشرطة في المساحات العامة يساهم في إنشاء وعيٍ معيّن لدى الفرد حول نفسه وطريقة تصرّفه أثناء وجوده فيها. وبكلماتٍ أخرى، فإنّ حضورَ رجال الشرطة في المساحات المركزية يقوم بتشغيلٍ أوتوماتيكيٍّ للقوة على الأفراد، نتيجةً لما أُطْلِق عليه فوكو تعبيرَ «النظرة البانوبتيكية» (panoptical gaze) أو «النظرة المطبِّعة» (normalizing gaze) التي يُلْقيها الحارسُ الواقفُ في أعلى البرج على جميع النزلاء في الغرف من دون أن يتمكّن هؤلاء من رؤيته

وبطريقة مماثلة، فإنّ تكثيفَ حضور عناصر الشرطة حول المنارة يُبْرزهم أمام المارّة في الشوارع الستة المربوطة بالمنارة. بل قد يكون عددُ هذه العناصر أقلَّ، دون أن يكون لهذا تأثيرٌ على درجة فعّاليتهم ـ وهو ما اكتشفتْه سلطاتُ الاحتلال الإسرائيلي بالذات، إذ اكتفت لوقتٍ طويلٍ أثناء فترة احتلالها لرام الله بتمرير مَرْكبةٍ عسكريةٍ واحدةٍ بضعَ مراتٍ في اليوم في دوّار المنارة من أجل ضبط المدينة كلِّها، محقِّقةً بذلك أحدَ أهم المبادئ الاقتصادية في النظام الرأسمالي، وهو المبدأ الذي يلخّصه فوكو بالشّعار التالي: «أفضلُ نتائج بأقلّ مصاريف »

٢. ٢. أبعاد التحوّلات في حيّز المنارة. في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، وكما ذُكر في الصفحات السابقة، تحوّلَ نظامُ تشغيل الكهرباء في رام الله إلى نظامٍ مركزي. وبهذا لم تَعُدْ هنالك حاجةٌ إلى تشغيل أضواء شوارع المنطقة من المنارة غير أنّ توقُّفَ هذه الأخيرة عن تأدية وظيفتها الأساسية لم يؤثّر في أهمية الحيّز الذي توسّطتْه، وهو ما يبرِّر سرعةَ العمل على إنشاء شيءٍ ما تفُوق أهميّتُه ما كان موجودًا سابقًا. وهكذا شُيِّد نُصبٌ يخلِّد ذكراها، وذكرى العائلات الراملَّوية التي تَعْتبر نفسَها الأصليةَ فيها

أمّا اختيارُ هذه العناصر دون غيرها لتخليدها في نُصب، فذلك يعود إلى أسبابٍ عديدة، أهمُّها الظروفُ الجديدةُ التي أحاطت بقائم ـ مقامية رام الله بعد انسحاب القوات البريطانية عند انتهاء الحرب العالمية الثانية من غالبية مستعمراتها. فقد فَسَحَ ذلك الانسحابُ المجالَ أمام مجلس رام الله البلدي لأن يتمتّع للمرة الأولى بقدْرٍ من النفوذ على المدينة، فبوشر العملُ على تصميم نُصبٍ يمثِّل القوةَ الجديدة، أي المجلسَ البلديَّ لرام الله وما يقومُ عليه من تمثيلٍ عائلي ويرى كولز[١] أنّ دوافعَ مثلِ هذا التصرف من قبل مجموعة القوة في الحيّز العامّ تَنْبع بالأساس من أزمةٍ حقيقيةٍ تتعلّق بشرعية تلك المجموعة، إذ إنّها تلجأُ إلى التمثيلات الرمزية من أجل أن تبرِّرَ شرعيةَ وجودها، وكي لا يعترضَ أحدٌ خارجَها على وجودها أو على شكل «العَدْل» المتمثِّل في صورة حكمها.

وأمّا لماذا تمّ انتقاءُ الانتماء العائلي دون غيره كشرط أساسي لقبول أحدهم في مجموعة القوة تلك، فإنّ جيرار[٢] يقترح بعضَ الدوافع التي من شأنها أن تَشْرح تصرُّفَ بلدية رام الله في تلك الفترة. فهو يشير إلى أنّه حين تبدأ مؤسساتُ السلطة في مجتمعٍ ما تعاني أزماتٍ شديدةً، تتكوّن مجموعاتٌ تلقائيةٌ هدفُها الأساسي هو أن تحلَّ مكانَ تلك المؤسسات المترنّحة، وأن تضطهدَ ـ في الوقت نفسه ـ مجموعاتٍ أخرى تخشى أن تَطْمح إلى تولّيها السلطةَ. ونزعةُ الاضطهاد هذه تنشأ وفق عوامل معينة، أكثرُها صلةً بموضوع هذه المقالة عاملُ «التميُّز.» وهو ما يبرِّر لجوءَ المجلس البلدي لمدينة رام اللّه إلى إنشاء نُصب يخلِّد مجموعةَ العائلات التي ينتمي إليها أعضاؤه، كمحاولة لتقديم ما يميِّزه عن بقية القاطنين في المدينة وبالتالي يبرِّر تفرُّدَه بالسلطة دونهم بهذه الطريقة، وبالاعتماد على مبدإ احترام «الاختلاف» الذي يبرِّر أنّه يحقّ لـ «س» ما لا يحقّ لـ «ص» لأنّ «ص» ليس مثل «س،» تروح مجموعةُ «س» تقتنع وتُقْنع غيرَها بأسباب تولّيها السلطةَ دونهم. ولكنّ مجموعة القوة تحاول، في الوقت ذاته، دحضَ حقيقة وجود «اختلاف» في المجتمع، أيْ دحضَ أنّه مكوّن من «س» و«ص» وأنّ «س» يتمتع بهذا من دون «ص»؛ فذلك قد يشكّل تهديدًا لشرعيّتها لِما قد يَفْضح من مدى هشاشة تميُّزها وكونِه غيرَ موضوعي ولا مطلقًا، بل تلقائيٌّ وانتقائي.

وقد اختارت مجموعةُ القوة الجديدة سيرةً تاريخيةً معينةً من أجل أن تبرِّر ذلك التفرُّد. إذ بحسب المبدإ التاريخي لـ «نشوء رام الله،» كان يُمْكن العودةُ إلى ما قبل القرن الثامن عشر، إلى القرن السادس عشر مثلاً حين سَكَنتْ رامَ الله أربعُ عائلات أُخرى تمامًا [٣] أو كان يُمْكن العودةُ إلى فترة ما قبل الميلاد، حين سكن المدينةَ الكنعانيون.[٤] أو كان يُمْكن القفزُ إلى الأمام، إلى ما بعد القرن الثامن عشر، إلى العام ١٩٤٩ مثلاً

١ ـ Coles, R., **Self/Power/Other: Political Theory and Dialogical Ethics** (Ithaca: Cornell University Press, 1992).

٢ ـ Girard, R.,**The Scapegoat** (Baltimore: John Hopkins University Press), 1986.

٣ ـ ع شاهين، **كشفُ النقاب عن الحدود والأنساب في مدينة رام اللّه** (بيرزيت جامعة بيرزيت، ١٩٨٢)

٤ ـ أ ح الدجاني، **المدينتان التوأم: رام اللّه والبيرة وقضاؤها** (القدس، ١٩٩٣)

يمكن القول إنّ وجود رؤوس الأسود الخمسة في النُّصُب أشدُّ فاعليةً من الوجود الفعلي للعائلات التي تَرمز إليها هذه الأسود.

وبالتالي، فإنّه لا يُمْكن اعتبارُ تصميم المنارة بشكلها المعيَّن في منتصف القرن العشرين محاولةً بريئةً للإشارة إلى قدوم عائلةٍ كذا وكذا ذاتَ يومٍ في القرن الثامن عشر إلى المنطقة، وإنما هو يحوِّل هذا القُدومَ إلى حدثٍ «مقدّس» دون غيره من الأحداث، لا لسببٍ إلاّ لأنّه يساهم في ترويج قبولِ مبنى القوة الجديد في المدينة، ويحوِّل ما يُعتبر حيِّزًا عاماً للجميع إلى شكلٍ من أشكال التعبير الرمزي الخاص به. وهكذا، فإنّ كلَّ مَنْ لَمْ يُمثَّلْ في تصميم المنارة يَكتشف «عدمَ استحقاقه» لأن يُمثَّلَ إلى جانب تلك العائلات الممثَّلة فيها، بل يذوِّت مباديءَ القوّة التي تَعْمل ضدّه وتحوّلُه إلى «غيرِ أصليّ» إذ يتمّ تلقينُه بشكلٍ تلقائي ـ عبر ذلك التقسيم الثنائيّ المقترح أمامه في المنارة ـ مضمونَ هويته الشخصية في المدينة: غيرِ أصلي/ غريب/ دخيل، حتى لو كانت رام الله هي المدينةَ الوحيدةَ التي يَعْرفها![1]

يجري ذلك كلُّه دون أن تضطرَّ مجموعةُ القوة إلى أن تَعْرِضَ نفْسَها على الملإ، وإنّما تكتفي بخمسة رؤوس أُسُودٍ حجرية، ولاحقًا بثماني نافورات. تمامًا كالحارس الذي تَنْتفي ـ مع الوقت ـ الحاجةُ إلى وجوده داخل برج المراقبة في مبنى البانوبتيكون، ويصبح بالإمكان الاكتفاءُ بالبرج فارغًا لكي يَنْضبط السجناءُ أمامه![2] بل يُمْكن القول إنّ وجودَ رؤوس الأُسود الخمسة في النُّصب أشدُّ فاعليةً من الوجود الفعليِّ للعائلات التي تَرْمز إليها هذه الأسودُ؛ فالجسد مهدَّدٌ بالموت والانقراض، وأما الحجر فأبديٌّ وفوق ـ زمني.[3]

وفي الوقت ذاته، وبسبب هذه الأبدية المزعومة التي يقترحها النصبُ التذكاريُّ، يشير لوفيفر إلى أنّه كثيرًا ما يتمّ هدمُ النصب التذكارية عقب حدوث تغيير جذري في مبنى علاقات القوة السائدة، كقدوم محتلٍّ أو نشوبِ ثوراتٍ ضدّ نظام الحكم القائم[4] وهو ما يفسِّر تصرُّفَ قوات الاحتلال الإسرائيلي في رام اللّه، التي لم تكتفِ بحلّ المجلس البلدي للمدينة، وإنّما فَكّكتْ نصبَ المنارة التي يمثّلها. عبر هذا التصرّف، أعلنت السلطاتُ الإسرائيلية مساحيّاً عن انتصارها على السلطة السابقة، وكذلك عن رغبتها في تحويل ذلك الحيّز بالذات لخدمة صالحها لا صالح القوة السابقة، جاعلةً المنطقةَ مفتوحةً أمام تحرّكات مَرْكباتها العسكرية ـ خلافًا لما كانت تَفْعله في السابق حين كانت تلتفّ من حول النُّصب كلّما أرادت العبورَ من شارع رئيسي إلى آخر، أو مطاردةَ المتظاهرين المجتمعين حول المنارة.[5]

٣. ٢. إعادة تشييد المنارة. بقيت المساحةُ التي كانت تَشْغلها المنارةُ في السابق، عقب هدمها من قبل السلطات الإسرائيلية، فارغةً طيلة فترة الاحتلال الإسرائيلي. ولكنْ مع بداية سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني في رام الله في أواخر العام ١٩٩٦، أخذتْ تَظْهر بعضُ المحاولات لإعادةِ إنشاءِ شيءٍ ما فوق ذلك

---

١ ـ لا يَقْتصر هذا النوع من التصرف على رام الله وحدها. ففي تحليلٍ لبيات Bayat حول السياسة المنتهجة في المساحات العامة في طهران بعد لجوءِ مجموعاتٍ كبيرةٍ من القرى الإيرانية إليها في أواسط القرن العشرين، يُمْكن ملاحظةُ تشابُهٍ كبيرٍ في طريقةِ تعاملِ مجموعة القوة في المدينة مع تلك المجموعات ومحاولتها إقصاءَها عن المساحات العامة المركزية، بعد أن راحت هذه المجموعاتُ الجديدةُ تمثِّل ما بدا تهديدًا يتعلّق بالسيطرة على المساحات والموارد في طهران. راجع Bayat, A., **Street Politics** (New York: Columbia University Press, 1997).

٢ ـ يجد فوكو أنّ فاعليةَ الدور الذي تَلْعبه الهندسةُ المعماريةُ والتصميمُ والتقسيمُ المساحي في نظام القوة يعود في الأساس إلى ارتقاءِ مُركّباتها جميعًا إلى السطح (**Power/knowledge**، مصدر مذكور)

٣ ـ يشير فوكو (المصدر السابق)، خلال تحليله للرموز التي تَعْمل في خدمة القوة في المساحات العامة، إلى استخدام التماثيل في العصور الوسطى من أجل الحفاظ على وحدة المملكة. ثم تمّ نسخُ صورة الملك في عدة تماثيل حجرية وُزِّعتْ في أنحاء المملكة، ليتحوّلَ بذلك جسدُ الملك إلى فوق ـ زمني وغير ـ متغير، وغدتْ سلطتُه فوق ـ زمنية وغير ـ متغيرة.

٤ ـ Lefebvre, H., "The Production of Space," in **Rethinking Architecture: A Reader in Cultural Theory**, Leach, N., (Ed) (London: Routledge, 1997), pp. 139-147.

٥ ـ بعد انهيار الأنظمة الشيوعية في شرقي أوروبا، دُمِّرت التماثيلُ التي صَوَّرتْ لينين وستالين وغيرَهما. وكذلك الأمرُ عقبَ تولّي طالبان مقاليدَ الحكم في أفغانستان ومباشرتهم هَدْمَ الأنصاب التي سبق أن اعتزّوا بها في السابق (بدعوى أنّها ضدُّ تعاليم الإسلام). ولا نزال نَذْكر، بالطبع، صورَ إزالة تمثال صدّام حسين بعد احتلال القوات الأميركية لبغداد سنة ٢٠٠٣.

الحيّز الـ «فارغ» الذي خلّفه الاحتلال. في البداية، زُرعتْ أعشابٌ خضراء فوق الموقع، ثم أزهارٌ، وبعدها غُرستْ شجرةٌ، قُلِعَتْ فيما بعد وبقي الترابُ مكانَها، ثم زُفّتَ الفراغ وكُسيَ بالأسمنت، وبعدها وُضعتْ إشاراتٌ ضوئيةٌ، ما لبثتْ أن أزيلتْ، وأُنشِئ مكانها دُوّارٌ. ولقد باتت هذه البلبلةُ الواضحةُ، بما رافقها من عملياتِ بناءٍ وهدمٍ متكررةٍ، محطَّ سخريةِ سكّان المنطقة. إلاّ أنّ ثمة أسبابًا واضحةً ومحدّدةً خلفها.

عقب تحوّل إدارة محافظة رام الله من سلطات الاحتلال الإسرائيلي إلى السلطة الفلسطينية، ظَهرتْ مجموعتا قوةٍ في المدينة: المجموعة الأولى، ويمثّلها المحافظ الذي يتمّ تعيينُه مباشرةً من قِبل السلطة الوطنية الفلسطينية؛ بينما تتكوّن المجموعةُ الثانية من مجلس رام الله البلدي الذي أُعيدَ تشكيلُه وفق المواصفات السابقة. وبحضور هاتيْن المجموعتيْن، لم يعد تمثيلُ مجموعة القوة فوق حيّز المنارة بالأمر السهل، بل غدا إشكاليةً حقيقيةً انعكستْ أبعادُها مساحيّاً على عمليات البناء والهدم المتكررة، وأفصحتْ عن وجودِ منافسةٍ إيديولوجيةٍ غيرِ مباشرة وغيرِ معلنة بين مجموعتيْ قوةٍ مختلفتيْن، تحاول كلٌّ منهما وضعَ شروطها ورؤيتها للحقيقة ومبنى قوتها في الحيّز العام، وبالذات في تلك المرحلة الانتقالية.

إلا أنّ هذا الصراع راح يختبئ خلف شعار «الصالح العامّ.» ففي المقابلة مع مسؤولة قسم الهندسة المعمارية في بلدية رام الله، تؤكّد الأتيري أنّ عمليات البناء والهدم هذه كانت نتيجةَ البحث المتواصل والدؤوب عن الحلّ الأمثل لتشييد شيءٍ يُسْهِم في تسهيلِ وتنظيم حركةِ السير الشديدةِ الاكتظاظ في تلك المنطقة [١] غير أنّ أيّ قرارِ بناءٍ في تلك النقطة بالذات لا يُمْكن أن يُسهم في حلّ أزمة السير؛ فأزماتُ السير في تلك المنطقة ناجمةٌ، أولاً وأخيرًا، عن كون المنارة نقطةَ التقاء عدةِ شوارع رئيسيةٍ، ولأنها تقع في وسط منطقة يَسُودها نشاطٌ تجاري واجتماعي وسياسي وحتى ديني كثيف جداً (فأكبر جامع في المحافظة، جامع جمال عبد الناصر، يقع على مقربة ٢٠٠ متر من المنارة). ومن ثم، فادّعاءُ «الصالح العامّ» لا ينطبق على هذه الحالة، وما هو إلاّ محاولةٌ لإيجاد أفضل القنوات وأشدّها سلاسةً للتعريف بمجموعة القوة الجديدة في منطقة رام الله.

هذا، وقد سُوِّيَ الصراع الخفيّ أخيرًا بين مجموعتَي القوة المتصارعتيْن، وبقيت المجموعاتُ الأخرى التي تَقْطن المدينةَ (كاللاجئين والمهاجرين من القرى والمدن الأخرى) خارجَ التمثيل، كما كانت خارجَ التمثيل في تحالف القوة السابق. وهكذا تمّ تشييدُ النصب الجديد للمنارة بوصفه نسْخةً منقّحةً لتصميم المنارة القديم، مع إضافةٍ بعض «التعديلات الفنية» لتَعْكس التعديلاتِ الناجمةَ على نظام القوة في رام الله عقب معاهدات أوسلو، ولتُوهِمَ بأنّ تغييرًا ما حدث بالفعل (كما كان دوڤي سيقول) [٢]

من ناحية أخرى، يحتوي قرارُ العودة إلى التصميم القديم من أجل بناء تصميم جديد دوافعَ تَفُوقُ في أهميّتِها الدوافعَ التي أدّت إلى بناء التصميم القديم في الدرجة الأولى. فالقرار الجديد يطالب بإعادة بناءِ شيءٍ هُدِمَ، أيْ بات جزءًا من الماضي، غير أنّ رغبةً في العودة إليه مرةً أخرى تَظْهر الآنَ فجأةً؛ ولمّا كانت قواتُ الاحتلال الإسرائيلي هي مَنْ قامت بهدم المنارة، لا سكّانُ رام الله أنفسُهم، فإنّه يُمْكن القولُ بأنّ هذه الرغبة في العودة إلى تصميم المنارة القديم هي أيضًا رغبةٌ في العودة إلى فترةٍ ما قبل الاحتلال. إنّها رغبةٌ تَعْكس عودةً حنينيةً (nostalgic return) إلى ما يُعتبر حقيقةَ المجتمع وفترةَ مجده.[٣] ولكنّ أشخاصًا مثلَ فوكو كانوا سيَنْتقدون هذا النوعَ من العودة الحنينية بشدّة لأنّها مستحيلة، إضافةً إلى أنّها عودةٌ نابعةٌ في الأساس من كره الحاضر أو الماضي القريب وتتنكّر ـ من ثم ـ لأسئلة الحاضر.[٤] إنّها، بعبارةٍ أخرى، عودةٌ تمجّد الماضي، وتتجاهل وضعَ المجتمع الحالي المغايرِ لما كان في السابق؛ وهو ما قد يؤدّي إلى حالة من الاغتراب والتناقض لدى أفراد المجتمع.[٥]

مقابل كلّ هذا، فإنّ السؤال الذي يَطْرح نفسَه الآن هو حول مصير ميدان المغتربين أو دوّار الساعة. أليس هذا الدوّار هو دوّارَ المنارة القديم؟ في الواقع أنّ هذا الدوّار، الآن، لم يَعُدْ يَمْلك أيَّ دورٍ يُذْكر في بناء وعي المجتمع، لا لأنّ رموزه لم تعد صالحةً فحسب بل لأنّها ليست كافيةً أيضًا ولا تمثّل بشكلٍ حقيقيٍّ نظامَ القوة في منطقة رام الله. ومن هنا تهميشُه عبر تحويله إلى هيكل مكوّنٍ من أجزاء المنارة القديمة، لا روحَ له ـ والروح في هذه الحالة اسمُ المنارة الذي يرتبط بمساحةٍ لا بنصُب حتى ثنائيةُ الاسم (دوّار الساعة أو ميدان المغتربين)

---

١ ـ أذكّر القرّاءَ بأنّ الضابط الإسرائيلي بيطون قام باستخدام الادّعاء نفسِه في العام ١٩٨٢ من أجل هدمها

٢ ـ Dovey, K., **Framing Places. Mediating Power in Built Form** (London: Routledge, 1999).

٣ ـ Celik, Z., Istanbul, in **Streets: Critical Perspectives on Public Space**, Celik, Z., Favro, D., & Ingersoll, R., (Eds), (California: University of California Press, 1994), pp. 83-94.

٤ ـ Lefebvre, opcit.

٥ ـ راجع Cioffi, F., "Wittgenstein and the Fire-festival," in **Perspectives on the Philosophy of Wittgenstein,** (Ed.) Block, I., (Oxford: Basil Blackwell), 1981; Cioffi, F., **Wittgenstein on Freud and Frazer** (Cambridge: Cambridge University Press), 1996.

مجموعات القوة كلّها، أمحتلةً كانت أم محليّة، تصبو إلى إيجاد «أفضل» السبل لإخضاع الفرد ولدفعه إلى التصرف بما يتّفق مع مصالحها.

تُفْصح عن تهميش هذا الدوّار؛ فعدمُ تحديد اسمٍ واحدٍ للدوّار يساهم في التقليل من أهميته.[١]

خاتمة

إنّ سلسلة التحولات التي مرّت بها منطقةُ المنارة في رام الله، منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى اليوم، تَعْكس إلى درجةٍ كبيرةٍ التحولاتِ السياسيةَ والاقتصاديةَ والاجتماعية التي مرّ بها المجتمعُ في تلك المنطقة خلال تلك الفترة، خاصة وأنّ جميع مجموعات القوة التي سيطرتْ عليه تباعًا قد وَجَدَتْ في حيّز المنارة وسيلةً مثلى للتعبير عن هويتها مساحيّاً، إما عبر بناء (أو إعادة بناء) تصميمات معينة وإمّا أحيانًا عبر هدمها. وهذا ما يشي بأنّ استراتيجيات مجموعات القوة على اختلافها، أمحتلةً كانت أمْ محليةً، تتشابه في كثير من الأحيان: فكلُّها تصبو إلى إيجاد أفضل السبل لإخضاع الفرد ولدفعه إلى التصرف بما يتفق مع مصالحها.

إذن، يُمْكن القولُ بأنّ المنارة، كمرجع هندسي - مساحي، ساهمتْ في تأسيس الوعي العامّ في المنطقة عبر عرض الهوية «المفضّلة» لسكّانها بواسطة مصطلحات معمارية، بهدف توفير الشرعية للممسكين بمؤسسات السلطة فيها

هكذا باتت المنارة، كظاهرة معمارية تَسْرد سيرًا مطبّعةً، أي سيَرًا تَعْتمد على تحويلِ ما هو تاريخي إلى طبيعي (كتمثيل عائلات رام الله «الأصلية»)، تلعب دورَ «مفتاح المدينة» أو «كلمة السر» التي تخوّل كلَّ مَنْ يَدْخلها - خاصةً وأنّها على مشارف رام الله - فَهْمَ «طبيعة» المدينة وتركيبةِ «مجتمعها» بالشكل الصحيح. وبعد لحظة الدخول مباشرةً، تتحول المنارة إلى لعب دور مَرْكز القطب الذي يروح الفردُ يكوِّن وفقَه - وبالاستناد على موقعه منه وبعده عنه - إحساسَه بالاتجاهات. فهي، وبسبب تصميمها الدائري خاصةً، تَمْلك القدرة على احتلال مركز الحياة اليومية للمارّة والسيطرة على أشكال عبورهم بين منطقة وأخرى، متحوِّلة من/وإلى حلقة وصلٍ وفَصْلٍ، حسب الحاجة.[٢] بل إنّها تملك الكلمةَ الأخيرة في تحديد شكل لقائهم: كموجودين من «حولها» لا كمتواجدين «معًا» وهذا يخولّها أن تعرِّفهم بوصفهم «محتشدين» لا «حشدًا،» وهو تعريف يساهم في تحديد مقدار قوتهم في حيِّزها كما في المدينة، خاصةً وأنّها تُخْضعهم إلى هندسة حركية وإيقاع حركي معينيْن يتدخّلان بدورهما في تحديد التجارب الحسية للمارة خلال وجودهم من حولها.

وفي المقابل يؤكّد لوفيڤر أنّ مساحة النُصُب التذكارية تقدّم الإجابات على أسئلة المارة فوقها في ما يخصّ هويتَهم وصورةَ المجتمع الذي ينتمون إليه. وذلك عبر التمثيلات والرموز التي تحويها وأشكالِ الوجود الإنساني العديدة والمألوفة في المساحات العامة - كصراخ الباعة المتجوّلين أو صفير المركبات (في حالة المنارة) وعبر ذلك، تَنْقل المساحاتُ العامةُ الأفرادَ الموجودين فيها إلى عالم آخر، عالمٍ يجعلهم يفكّرون من داخله، وبعَوْنه، في أنفسهم

إنّ كلّ تحرُّك في أيّ حيِّز عام يَخْضع عمليّاً لمجموعة من القواعد هي جزءٌ لا يتجزّأ من الكيان الاجتماعي - السياسي للمجتمع الذي يحوي ذلك الحيّزَ ولهذا السبب، يعتبر ليفيڤر أنّ مساحات النُّصب التذكارية - بما يَنْعكس عليها ويتجمع فوقها من وجود إنساني، وبما هو مسموح وما هو ممنوع - هي مساحاتٌ لإنتاج العلاقات الاجتماعية، التي تقوم بدورها بتأدية وظيفة الداعم المجازي للمجتمع ولمبنى العلاقات القائم فيه.

لندن

---

١ - Celik, opcit.

٢ - Dovey, opcit.